

المرجعية الإيمانية العربية للأخلاق

الكاتب



علي محمد فخرو

د. علي محمد فخرو

ذكرنا في مقالين سابقين كيف قامت الحضارة الغربية بتسييد الإنسان المطلق في الموضوع الأخلاقي، وتهميش الدور الإيماني الروحي الديني كمصدر للقيم الأخلاقية في كل شؤون الحياة التي تهتم الإنسان. من هنا الأهمية الكبرى لبناء مرجعية ذاتية عربية للقيم الإنسانية والأخلاقية تأخذ بعين الاعتبار تاريخ وثقافة هذه الأمة وتراثها الروحي الإيماني البالغ التجذر في نفوس وعقول شعوب هذه الأمة، مع الاستفادة من فكر ومرجعيات الآخرين التي لا تتعارض مع ما نريد بناءه لحضارتنا.

إن ما يعطي أهمية للمرجعية الدينية كجزء مهم وأساسي في بناء المرجعية الذاتية هو الآتي: أولاً، الاتفاق شبه العام بأن الدين، إضافة للجوانب العقائدية والتعبدية منه، هو رسالة أخلاقية في الدرجة الأولى، والتي هي في كثير من تفاصيلها تأكيد لكثير من القيم الأخلاقية الفطرية عند الإنسان.

وثانياً، هناك فرق بين الاستجابة الإنسانية لقيم أخلاقية وضعها الإنسان، وبالتالي قابلة لأن تكون مملوءة بالثغرات والأخطاء، وبالتالي أيضاً غير ملزمة وقابلة للأخذ والعطاء والاستعمالات الانتهازية، وبين قيم هي أوامر وتوجيهات إلهية عليا تتصف بالطبع بالكمال المطلق. هذا بالطبع بالنسبة للإنسان المؤمن المصدق المستسلم لوجود الإله الذي يسميه دينه ويأمر بطاعته.

وثالثاً، وكنتيجة لتوفر ما جاء من إيمان صادق، لا يمكن للإنسان إلا أن يؤمن بأن الإله الذي يعبد هو مراقب لتصرفاته ولالتزامه بالقيم الأخلاقية التي أمر الله بها مثلاً في دين الإسلام. إن شعور الإنسان العميق بأن هناك من يتابع كل صغيرة وكبيرة من ممارسته للقيم الأخلاقية المأمور بها من قبل السلطة الربانية، وأن تلك السلطة تراقب الظاهر والباطن

وتعرف السر وما أخفى، تجعل أخذه بعين الاعتبار لكل قيمة أخلاقية ليلاً ونهاراً، ظاهراً وباطناً، وليس بصورة انتقائية نفعية. هذا الإنسان يعرف أن المساس بالقيم الأخلاقية هو مساس بإيمانه وبعقيدته وبالتالي يقربه أو بعده من الرب القدير.

بالنسبة للمسلمين هناك القرآن الكريم الذي يزخر بالتوجيهات والأوامر القيمية الأخلاقية، وهناك الأحاديث النبوية المؤكدة المطهرة، وهناك أيضاً الكثير من الاجتهادات الفقهية المتزنة المرتبطة بالموضوع. نحن بالفعل أمام مصادر هائلة وغنية من التوجيهات الأخلاقية التي في اعتقادي ستغطي الموضوع برمته، موضوع الفضائل والردائل. وبالطبع فإن الإخوة المسيحيين لديهم مصادرهم ومرجعياتهم الدينية المتعلقة بالموضوع

المهم بالنسبة لهذا الموضوع هو الرفض التام لمحاولات فصل الدين، كمرجعية، عن الأخلاق، قيماً وممارسات، إذ إن ذلك سيكون كارثة لكل مناحي حياة الإنسان الدنيوية

سيكون من الخطأ الاكتفاء بذلك النبع المهم وحده، ذلك أن إبعاد العقل والإرادة على الأخص، بالنسبة لهذا الموضوع، سيبعد الإنسان عن واقع تطبيقات وسلوكيات الأخلاق الإنسانية التي تتغير وتتبدل عبر الأزمنة. من هنا الأهمية القصوى للارتقاء إلى العقلانية الإنسانية وإلى الإرادة الحرة الإنسانية للتعامل مع هذا الجانب من حقل القيم الأخلاقية وإبعاده عن التزمّت والانغلاق من جهة ولكن، وفي نفس الوقت، حمايته من العبث والعبثيين، كما يحدث الآن في الكثير من المجتمعات، وعلى الأخص الغربية منها كما أسلفنا في مقالات سابقة. فالمحاولات العنثية الحالية هي في الواقع تظلم الأخلاق والدين وتؤدي إلى تشويه الاثنين، بالرغم من أنها تدّعي أنها ستحرر الاثنين من تبعات كل منهما

ما يحتاج شباب وشابات هذه الأمة معرفته هو أنها جرت محاولات كثيرة عبر أكثر من قرن لبناء تلك المرجعية العربية دون الوصول إلى توافق عام بالنسبة لتفاصيل هذا الموضوع. وهناك ضرورة لأن تضع شابات الأمة وشبابها جهداً مكثفاً للاطلاع على أدبيات الموضوع. وليس بغريب على هذه الأمة أن تحاول عبر القرن الماضي أن تبني المرجعية الذاتية، ذلك أن موضوع الأهمية الكبرى للعقل الإنساني كمتفاعل وموضّح للرسالة السماوية قد خاضته جماعات المعتزلة في الماضي ويحتاج الآن لمعاودة النظر في ما قالته وتجديده، وبالتالي فالعقلانية ليست غريبة على هذه الأمة وكذلك موضوع الإرادة الإنسانية الحرة قد نوقش مطولاً في الماضي، وبالتالي ليس بالموضوع الغريب. إن مناقشة الأمرين كجزء من بناء المرجعية الأخلاقية أصبح من الضرورات

عليه، فسنستمر في طرح هذا الموضوع حتى نجعله واضحاً وأساسياً في عقول ونفوس وضمائر شبابنا وشاباتنا

dramfakhro@gmail.com